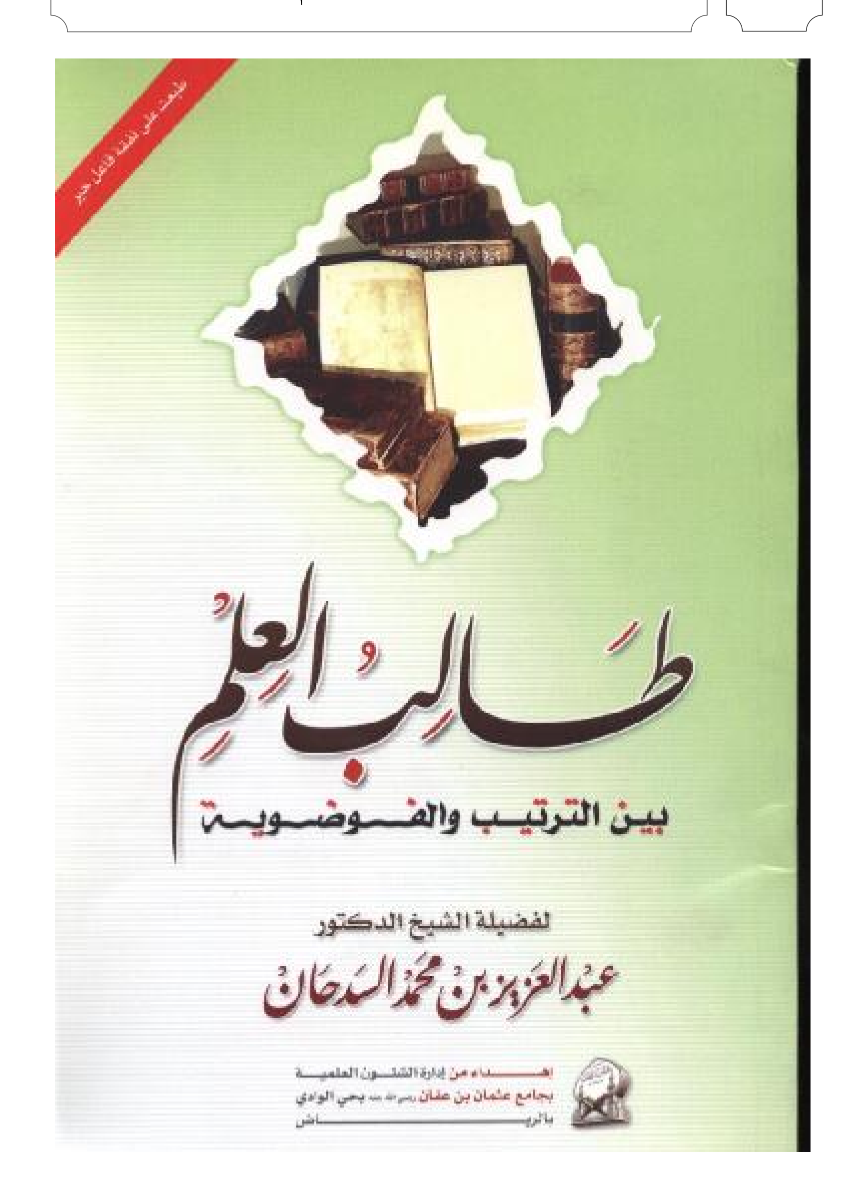

طالب العلم
بين الترتيب والفوضوية
لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد العزيز بن محمد السدحان
إهداء من إدارة الشؤون العلمية
بجامع عثمان بن عفان رضي الله عنه بحي الوادي
بالرياض

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى.

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور.

الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام على رسول الله الذي جاءنا من أنفسنا عزيز عليه ما عنتنا، حريص علينا، بالمؤمنين رؤوف رحيم، قائم بحقوق خالقه أتمَّ قيام، غير مضيِّع لحقوق المخلوقين؛ لأنّ من لازم القيام بحقوق الله تعالى القيام بحقوق المخلوقين، مرتِّب لجميع أموره، قد أعطى كلّ ذي حقٍّ حقَّه مع مراعاته لشؤون أهله أتمَّ مراعاة وأكملها، ولم يهمل حقوق نفسه فقد أعطى لبدنه حقه ولجميع جوارحه حقوقها، وبعد:

فهذه رسالة عن الترتيب في حياة طالب العلم وآثاره الحميدة، والفوضوية وعواقبها الوخيمة... كتبتُها طمعًا في الأجر والثواب، ونُصحًا لكاتبها وسامعها ومَن بَلَغ، وفيها ـ بتوفيق الله تعالى ـ إجابات على أعذار يتشبَّث بها بعضهم ليرقع نقصه

وتقصيره:

أحدهم يقول: أشغالي أكثر من أوقاتي...

وثانٍ يقول: لي زمن طويل أطلب العلم ولم أحصِّل شيئًا!

وثالث يقول: لا يمكن الجمع بين طلب العلم وبين أشغال البيت...

ورابع يقول: هذا الوقت كثرت فيه متطلبات الحياة، من ضروريات وكماليات، وبين ذلك قوامًا، فلا نستطيع القيام بمسؤولياتنا..

وخامس يقول: المسافات في مدينتي طويلة وزحمة الطرقات مستديمة..

وسادس يقول: لا تتخيَّل كم أقضي الساعات في مشاغلي الخاصة، ناهيك عن العامَّة...

وسابع يقول: زماننا هذا نُزِعت منه البركة..

وبكلِّ حال:

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا

إذا قلّبت النظر في حياة هؤلاء... وجدت الفوضوية قد ضربت أطنابها.. فوضى في صلة أرحامهم، فوضى في مواعيدهم، فوضى في بيوتهم، فوضى في زياراتهم، فوضى في أسفارهم،

فوضى في حضور الدروس، فوضى في ترتيب مكتباتهم، فوضى في وقوف سياراتهم...

ولمثل هؤلاء يقال:جاهدوا تلك الهمم الضعيفة والعزائم العليلة، فالخير موجود، والبركة لا تنقطع.

واجعلوا في سويداء قلوبكم ونصب أعيُنكم: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾، وفي الحديث القدسي: «**أنا عند حُسن ظنّ عبدي بي**».

ثمَّ أيضًا:

أين أنتم من: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾؟

أين أنتم من: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾؟

أين أنتم من قول النبيِّ ﷺ: «**إنما العلم بالتعلُّم**»؟ ومن قوله ﷺ: «**ومن يتصبَّر يُصبِّره الله**»؟

واعلموا ـ رعاكم الله تعالى ـ أنّ من استعان بربِّه ثمَّ جاهد نفسَه ورتّب أمورَه سيرى ما تقَرُّ به عينُه وينشرح به صدرُه؛ من بركة في الوقت، وتيسير في الأمر.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الرياض صباح الأربعاء
٨/ ٤/ ١٤٢٨هـ

الترتيب من سنن الله تعالى الكونية

تدبر في حركة الكواكب في هذا الكون الفسيح، وكيف أنها تسير بانتظام دقيق لا يختلّ عن مساره ولا يحيد.. ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

تأمَّل في تعاقب الليل والنهار.. ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧-١٨]، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقُل لي بِرَبِّك.. كيف لو استمرَّ النهارُ أو الليل سرمدًا إلى يوم القيامة؟ هل ستنتظم حياة الناس؟ كلّا.. سيختلّ الأمر كله، ذلك أنّ الله تعالى خلق الأسباب ورتّب عليها المسبِّبات بقدَره وهو العزيز العليم، فجعل الليل لباسًا والنهار معاشًا، وجعل في الشمس مصالحَ للبحار والأرض والناس والنبات والحيوان، فلو استمرَّ الليل سرمدًا لترتب من ذلك فسادٌ عريض، وكذا لو لم يكن ليلٌ واستمرَّ النهار.. ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا

تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

فسبحانَ من أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثمَّ هدى.

وتأمَّل في تعاقُب الفصول من شتاءٍ وصيف وخريف وربيع، ثمَّ قلِّب الطرفَ ببصر وبصيرة، وانظر إلى كيفية خلق الأرض وعظيم مساحة الماء على سطحها مقارنةً باليابسة، ثمَّ انظر في شأن الأنهار وكيف جعل الله منتهَى مصبِّها في البحار، فكيف لو كانت تسيح على الأرض؟ ما الذي سيحصل للناس بل للأرض جميعا؟!

ومِمَّا يحسُن ذِكرُه هنا جريان الأنهار وعدم ثباتها كالبحار... ذَكَر بعضُ أهل العلم أنّ الماء العذب لو بقي راكدًا لتعفّنت رائحتُه ولم يُشرب، بخلاف الماء المالح، فسبحان الحكيم الخبير.

واعْجَبْ من الترتيب والنظام في حياة البيئة! ولنأخذ مثلًا حياةَ سباع الوحش والطير في شأن طعامها، فسباع الوحش ـ كالأسد والنمر ـ تصطاد فريستَها من البقر والغنم أو الضباء أو غيرها، ثمَّ تأكل حتى تشبع، فتأتي بعدها صغارُ السِّباع من ضباع وذئاب، بعدها تأتي جوارح الطير، ثمَّ تأتي قوارض

الأرض الصغيرة من حشرات وغيرها لتقضي على ما تبقّى...

وإذا قُدِّر أنّ جوارح الطير وقوارض الأرض لم تأت؛ فإنّ الشمس وتقادُم الأيام تُفنِي ما تبقّى من الجِيَف، فكيف يكون الشأنُ لو بقيت تلك الجِيَف تُفرِز رائحتها العفنة مع تقادم الزمن؟! ألا تختلّ طبيعة الحياة؟

وهنا وقفة.. لو كان عددُ الوحش أكثرَ من عدد الأنعام التي تفترسها، فهل ستنتظم حياة البيئة؟ كلّا.. بل سيحصل خللٌ وفناء؛ لعدم أسباب التوارث الخلقي في بقاء الجوارح.

ولذا كان من عظيم حكمة الله تعالى كثرةُ الأنعام وقلة الجوارح نسبةً إليها، وهذا من ترتيب الأمور لتستمر الحياة كما أراد الله تعالى.

شاهد القول: أنّ الحياة في كلّياتها وجزئياتها ـ كونًا وشرعًا ـ قد بلغت غايةَ الترتيب والإتقان، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وانظر كذلك إلى التفاوت بين الناس... فهناك حاكمٌ ومحكومون، وهناك خدمٌ ومخدومون، لو كانوا سواءً لفسدت الأرض، ولكن ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

الترتيب في حياة الأمم

كلّ أمم الأرض بينهم قواسم مشتركة في تنظيم شؤون حياتهم، ففضلًا عن تفاوت الناس بين رئيس ومرؤوس، هناك نظام لترتيب شؤون حياتهم، فهناك نظامُ الطرق والعمل والسفر وما يتبع ذلك من شؤون البناء والزراعة والصناعة... كلّ ذلك بقيود ولوائح تنظيمية.

والناظر في حياة المجتمعات والدول يرى أنّ أكثرها عنايةً بترتيب شؤون حياتهم هم أهنؤها بتسيير أمور معاشهم وراحة أبدانهم.

فانظر تلك المجتمعات التي تُعنَى بتطبيق نظام المرور مثلًا، إذا تقيَّد الناسُ به كيف يسيرُ الرَّاكب مطمئنًّا عالما بما له وما عليه من شأن الطريق، وفي المقابل كيف يكون الشأن في إهمال نظام السَّير من عدم الاعتناء به من جهة الحاكم أو المحكوم؟!

وببالغ الأسف بالمقارنة مع ديار المسلمين.. انظر إلى كثير من ديار الغَرب وسترى أثر العناية بالترتيب في شؤون الحياة.

اللهَ أسأل أن يُصلِح أحوالَ المسلمين في أمور دينهم ودنياهم.

الإسلام دين الترتيب والكمال

الناظر في أمور الإسلام وتشريعاته بعين البصيرة يرى أنّ الإسلام عُني بالترتيب والكمال في جميع أحكامه الكلية والفرعية، فمثلا في شأن العبادات هناك ترتيبٌ عجيب وتنظيم دقيق، وبالمثال يتضح المقال:

هناك عباداتٌ زمانية منها ما هو يَومي كالصلوات الخمس، ومنها ما هو أسبوعي كصلاة الجمعة، ومنها ما هو سنوي كصيام رمضان، ومنها ما هو عُمري ـ يعني لا يجب إلّا مرَّة في العُمر ـ كالحج، ومنها ما يكون بحسب سببه كالكسوف والاستسقاء، ومن العبادات ما يكون مقيَّدًا بمكان معيَّن كالحج لا يكون إلّا في مكّة.

ثمَّ تأمَّل الترتيب في نفس العبادة... فمثلا الصلوات المفروضة خمس صلوات، فيهن ركعات جهريَّة وركعات سِرِّيَّة، وفيهنّ الرُّباعية والثلاثية والثنائية، ثمَّ تأمل في الركعة نفسها، واعجب من حُسن ترتيب أدائها.. قيامٌ، ثمَّ ركوع، ثمَّ رفعٌ واعتدال، ثمَّ سجود، ثمَّ رفعٌ واعتدال، ثمَّ سجودٌ، ثمَّ رفع واعتدال... وانظر إلى عظمة الترتيب في تنوُّع أذكار الرَّكعة..

قراءةٌ في القيام، وتعظيمٌ في الرُّكوع، وثناءٌ وحمدٌ في الرَّفع منه، ودعاءٌ في السجود...

ثمَّ ارجع البصر مرَّة أخرى إلى مناسك الحج، وقلِّب الطرف في أمور المناسك لترى عجائب وعظائم في العناية بالترتيب... تنقّل بين المشاعر بترتيب، ورميُ الجمار بترتيب، والطواف بترتيب، والسَّعي بترتيب، بل شوط الطواف والسعي بترتيب، ففي شوط الطواف تقبيلٌ ومسح ورَمَل في الثلاثة الأُوَل... وهكذا، تشريعٌ من حكيم خبير.

النبيّ ﷺ أحسن الناس ترتيبا لجميع شؤونه

قبل سياق الكلام في هذا المبحث أذكر مَن تذرَّع وتعذّر بكثرة مشاغله، واشتكى من عدم قيامه بلوازمها فأقول له:

لو فتّشتَ في كتب التراجم والتواريخ فلن تجد أحدًا أكثر شُغلًا من النبيِّ ﷺ، ومع كثرة مشاغله فقد كان يقوم بها على أحسن وجه وأكمل صورة، ومصداق ذلك وهو شاهد المقال:

أنّ الناظر والمتتبِّع لما جاء في كتُب الحديث والسِّيَر والشمائل في سيرة النبيِّ ﷺ مع الناس ومع خاصة أهله يَعجَب من كثرة مشاغله وشؤونه، ويزداد عجبُه من قيام النبيِّ ﷺ بها بعناية تامَّة، ويبلغ العجب شأوًا بعيدًا إذا رأى في حياته ﷺ أوقاتًا للترويح عن نفسه وعن أهل بيته، ناهيك عن القيام بشؤون أهل بيته أتمَّ قيام وأكمله، وبالمثال يتّضح المقال:

كان ﷺ يقوم بأعمال متنوِّعة خاصّة وعامّة داخل المدينة وخارجها، فمن ذلك: تبليغ العلم، وقيادة الجيوش، واستقبال

الوفود، وإمامته بالناس جُمُعة وجماعة، وإفتاؤه للناس، وإجابة أسئلة غير المسلمين رجاء هدايتهم، وتقسيم الغنائم، وعيادة المرضى من المسلمين وغيرهم، وتشييع الجنائز، وزيارة المقابر...

زد على هذا أنه كان يُؤتَى بالصِّبيان فيُبرّك عليهم ويحنكهم ويدعو لهم، وكان ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، وكان يزور الأنصار ويُسَلِّم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم، وكان يَقبل الهدية ويُثيب عليها، ويمشي مع صاحب الحاجة ليقضي حاجته، ويشفع إذا طُلِبت منه الشفاعة...

وأمَّا فيما يتعلق بالنوافل فأمر عجاب... فقد كان ﷺ يُصلي قبل الظهر أربعًا، وأحيانًا ركعتين، وبعدها كذلك، وبعد المغرب ركعتين، وبعد العشاء ركعتين، وقبل الفجر ركعتين، ويُصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة، وكان يقوم حتى تتفطّر قدماه... ولم يُضيِّع حق أهله، بل قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»، فكان ﷺ يرقي مَن مَرِضَ مِن أهله، ويُداعب أولادَه وأحفاده.

ومع ذلك كله لم يضيع حق نفسه فأعطى جسده حقه؛ فكان

يصوم ويُفطر، ويقوم وينام، ويأكل اللحم، ومن عنايته ﷺ بنفسه وشؤونه الخاصة أنه كان يخصف نعله، ويرقع قميصه، ويَنحر أضحيته، ويحلب شاته، ويرقي نفسه، وكان من عنايته بنفسه ﷺ أيضًا أنه كان أنظف الناس، وكان يُعرَف بريح الطِّيب إذا أقبل.

ومع هذه الأعمال المتنوِّعة المتكرِّرة فقد بقي في وقته زمانٌ للترويح، فقد سابق بين الخيل المضمَّرة والخيل التي لم تضمّر، وكان ينظر إلى بعض أهل الحبشة وهم يلعبون بحرابهم وأطال النظر إلى لعبهم ليتمكن أهلُه من النظر إلى لعبهم، وسابق عائشة رضي الله عنها ... إلى غير ذلك ممَّا يَصعُب تدوينُه فضلًا عن حصره ممّا كان يقوم به ﷺ من الأعمال التي لو قسمت على سبعين لَوَسِعَتْهُم، بل قد تزيد عليهم، لكن بتوفيق الله تعالى له ثمَّ بعنايته ﷺ بأموره وترتيبها ممّا جعلها تكون على أحسن حال وأتمِّ كمال.

طالب العلم
بين الترتيب والفوضوية

لتعرف قيمة الترتيب وعظيم أثره وآثاره في حياة طالب العلم.. قارن بين طالبَي علم؛ أحدهما: حريص على أوقاته لا يفرِّط في جزئيات وقته فضلًا عن كلِّياتها، يقسم أوقاته على ما يحتاج من الأمور بعناية تامَّة.. كلّ ذلك بترتيب ذهني مسبق، ثمَّ يبدأ يومَه أو أسبوعه أو شهرَه أو عامه وقد رسم خطّة أعماله، فتراه ـ بإذن الله تعالى ـ منتظما في مسيرته، تقضى أوقاته ويحصل مراده بفضل الله تعالى ثم بعنايته بالترتيب.

بينما ذلك الذي لم يرتّب أموره وأخذ الأمر بفوضى وعشوائية ستراه يُهدِر أوقاته ويُنهِك جوارحه ويُتعِب نفسه، بل وقد يُتعِب غيرَه وقد يضرُّ نفسه وغيرَه بسبب تلك الفوضوية المذمومة شرعًا وعقلًا.

فطالب العلم قدوة في شأنه كله؛ فإن أحسن وتأثر به مَن خالطه فذلك نفعٌ للجميع، أمّا إن كانت الأخرى ـ بأن عُرف عنه إضاعته لأوقاته وتفريطه في أموره تجاه نفسه وتجاه الآخرين وتأثّر

به من خالطه ـ فذلك ضررٌ على الجميع.

من أسباب الفوضوية

أولًا: التواكل والتسويف.

ثانيًا: عدم تقدير قيمة الوقت.

ثالثًا: عدم العناية بأشغاله وأموره ابتداءً.

رابعًا: تقديم شغل على آخَر وتأخير أشغال أخرى دون مقارنة.

خامسًا: استصعاب الأمور[١].

سادسًا: اللامُبالاة.

سابعًا: اليأس والخمول.

ثامنًا: اتِّخاذ القرار بسرعة دون تأنٍّ وترفّق. قال ﷺ: «**إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلّا زانه، ولا يُنزَع من شيءٍ إلّاشانه**».

تاسعًا: اتِّخاذ القرار وهو مشغول البال مضطرب الفكر، ومثل هذا تكون قراراتُه عشوائيةً وأمورُه فوضوية؛ لأنّ البال إذا كان مشغولًا لا يتأتّى لصاحبه النظر في الأمور

---

(١) من جميل ما سمعتُ في هذا المقام: «المتفائل يرى في كلِّ صعوبة فرصة، والمتشائم يرى في كلِّ فرصة صعوبة».

وتقديرها حقّ قدرها.

ولذا جاءت الشريعة بنهي القاضي عن الحُكم بين الناس وهو غضبان. قال ﷺ: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**».

وقد ذكر أهلُ العلم أنّ منع القاضي ليس مقصورًا على حالة الغضب فحسب، بل يُقاسُ عليها غيرُها من جوع وعطش... إلى غير ذلك.

عاشرًا: المبالغة في التفاؤل ممَّا يولِّد عند عدم تحقيق طموحاته ومرئيَّاته نوعًا من الفوضى الذهنية والبدنية.

أمثلة للفوضوية
عند بعض طلبة العلم

هذا الأمر قد تعمّ به البلوى عند الكثير، ولا شك أنه مذموم لكنه في شأن طالب العلم أقبح؛ لأنه يعلم ما يجهله غيرُه، فضلًا عن كونه قدوةً يتأثر به من رآه ومن سمعه ومن بلغ، وسأضرب لك أمثلة من الفوضوية في حياة بعض طلبة العلم لنقلع عنها إن كنّا مبتلين بها، ولنحذر ونحاذر منها إن كنا معافين منها، فمثلا:

الفوضوية في أداء الفرائض:

تارةً بفواتها، وتارةً بفوات بعض ركعاتها لأجل التأخر المعتاد منه.

ومن أسباب ذلك التأخّر: عدم وضوئه إلّا عند الإقامة أو بعدها.

ومن الأسباب أيضًا: أنه قد يكون منهمكًا بشغل ـ من كتابة أو قراءة ـ فيستمرُّ في قراءته أو كتابته ليختم نهاية الكتاب أو مبحث منه، والشيطان يزيِّن له ذلك ويحسِّنه.

ومن الأسباب أيضًا: تلبيس الشيطان بأنّ عادة الإمام التأخّر في إقامة الصلاة.

وقس على ما يشابه هذه الأسباب.

شاهد المقال: أنّ طالب العلم هذا لو عُني بترتيب أوقاته وأعماله، وقسم تلك الأعمال على تلك الأوقات ولم يزاحم أمرًا بآخَر، وقدّم ما يستحقّ التقديم، وأخّر ما يستحقّ التأخير... لتخلص من تلك الفوضوية المشينة.

وعودًا على بدء؛ هذه الفوضوية التي تسبَّبت في فوات بعض الفرائض أو فوات بعض ركعاتها... لو أنّ هذا رتّب وقته وعوّد نفسه الاستعدادَ للصلاة بوقت يُقدِّره بحسب ظروفه وعُني بذلك تمامَ العناية المستطاعة.. لو كان ذلك فسيرى بإذن الله تعالى تيسيرًا من الله تعالى في إدراك الخير وتحصيل الأجر، ناهيك عن الرَّاحة النفسية والطمأنينة القلبية في أثناء الذهاب إلى الصلاة، فكيف عند أداء الصلاة؟!

ومن الأسباب التي تُعينه على تجنّب تلك الفوضوية في التخلّف والتأخّر عن الصلاة:

- أن يحرص أن يكون على وضوء دائمًا، وفي ذلك مصالح كثيرة:
  - منها: تبكيره في الذهاب إلى المسجد.
  - ومنها: أن يشمله قوله ﷺ: «**استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أنّ أزكى أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلّا**

مؤمن»[١].

○ ومنها: أنّ الملائكة تدعو لمن نام على طهارة كلما تقلب في نومه. قال ﷺ: «**طهِّروا هذه الأجساد طهَّركم الله، فإنه ليس من عبدٍ يَبيت طاهرًا إلّا باتَ معه في شِعاره مَلَك لَا ينقلبُ ساعةً من الليل إلّا قال: اللهمَّ اغفر لعبدِك فإنه بات طاهرًا**»[٢].

فإذا كان هذا في حال النوم، فلعل المحافظ على بقائه متوضئًا يناله شيءٌ من هذا، والعلم عند الله تعالى، ولو لم ينلهُ ذلك فما سبق فيه فضلٌ عظيم.

● أن يجعل الأذان فيصلًا بينه وبين مشاغله وجلسائه، ويكون هذا هو الأصل في شأنه.

وممَّا يحسن ذِكرُه هنا: ما ذكره يحيى بن معين عن إبراهيم بن ميمون الصائغ أنه «كان إذا رفع المطرقة فسمع النِّداء لم يرُدّها»[٣].

وكان الأسود إذا حضرت الصلاة أناخ بعيرَه ولو على

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٠)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٢٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي (١٠/ ١٧٨): «وإسناده حسن».

(٣) «تهذيب التهذيب» (١/ ١٧٣).

حجر[١].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣).

الفوضوية في النوم

وهذا من أعظم الأسباب في ضياع الأوقات وتراكم الأشغال.. فبعضهم إذا أسلم نفسه للنوم استرسل معه دون مراعاة لما قد يُفوِّته من واجبات شرعية وغيرها ممّا يضرّ تأخيرُه.

وبعضهم ليس له وقتُ نوم معيَّن؛ تارةً بعد الفجر، وتارةً بعد العصر، وتارةً بعد المغرب، وتارةً سهرٌ متواصل ونوم متفرّق!

ومثل هذا بفوضويته يَقتُل هِمَّته ويُهدِر أوقاته، بل قد يغلب عليه داءُ الكسل والخمول؛ لأنّ من عوَّد نفسه شيئًا ألفته.

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على
حُبِّ الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

ويضاف إلى آثار فوضوية النوم أنّ ذلك قد ينعكس على صحَّة الجسم.

ومن الترتيب في النوم:

- تحديد وقت معيَّن للنوم، وليكن مثلًا قرابة الساعة

الحادية عشرة ليلًا، فاحرص أن يكون نومُك قريبًا من هذا الوقت، ومعلومٌ بدهًا أنه قد تحصُل ظروف تؤخِّر النومَ عن وقته ساعة أو ساعات، هذا لا إشكال فيه ويحصل لكل أحد مثلُ هذا، إنما المقصود هنا هو أن يحرص طالب العلم جاهدًا على عدم الإخلال بوقت نومه الأصلي.

○ وممّا يتعلق بترتيب النوم وضعُ أسباب لترتيب استيقاظه، مثل جرس التنبيه في السَّاعة أو جرس التنبيه في الهاتف، وغير ذلك.

الفوضوية في قضاء الحوائج

ومن أمثلة ذلك: تأخير قضائها بالكلية إمّا بالتسويف أو بتوكيل مَن ليس أهلًا لذلك، أو بقضاء بعض الحاجة وترك الباقي.

وهذه الفوضوية لها أضرار على صاحبها.. فمن ذلك: تراكم الأشغال واشتغال البال بها، وقد تدعو الحاجة أحيانا إلى شيء من تلك الحوائج يحتاجها الأهل أو البيت أو هو بنفسه في ذلك الوقت ولا بدّ منها، وقد يكون في أثناء ذلك مشغولًا بأمر أو بأمور لا تحتمل التأخير، فتأتي تلك الحاجة فتزيده شغلًا، وقد تُربِك عليه أمورَه فتستهلك منه أوقاتا مضاعفةً، ولو أنه سارع بقضاء تلك الحاجة في وقتها لترتّبت أمورُه وانتظمت أوقاتُه.

الفوضوية في الزيارات

ترتيب طالب العلم لزياراته يحفظ عليه أوقاته، بخلاف من كان طبعُه الفوضى في ذلك فإنّ أوقاته تُهدَر وتمضي دون مراعاة لقيمة الوقت، وإذا كانت إضاعة الوقت مذمومةً في حقِّ عامة الناس من عامة وجهلة وغيرهم، فكيف يكون الشأن في طالب العلم؟! لا شكّ أنّ ذلك مذمومٌ في حقِّه؛ لأن أولى الناس بحفظ أوقاتهم هم طلبة العلم.

○ ومن أمثلة الفوضوية في الزِّيارات: أنّ بعضهم يوغل في زياراته ويُكثِر منها حتى يكون الأصل في أوقاته التنقل من مكان إلى مكان في جميع أيام الأسبوع إلّا ما ندر، والعجب أنّ بعضهم قد يجمعهم مكان دراستهم أو وظيفتهم، فقد يكونون في مدرسة واحدة أو كلِّية واحدة أو مكان وظيفي واحد، ومع هذا يلتقون في غالب أو جميع أيامهم، وكثرة هذه الاجتماعات بهذه الشاكلة تُفقِد طالبَ العلم كثيرًا من أوقاته، بل قد يألف ذلك الأمر ويَثقُل عليه تركُه، ويزيد هذا الأمر سوءًا إذا كانت تلك المجالس لا حظّ للعلم فيها، أو أن يؤدّي بهم التوسُّع في المباحات إلى الوقوع في

شيء من المحذورات.

وزد على ذلك أنّ من يكثرون من تلك المجالس المستمرَّة دائمًا يقعون في إهمال لكثير من مسؤوليات أولادهم وبيوتهم، فلا حظ لأولاده من الجلوس معهم إلّا قليلا، ناهيك عمَّا يحتاجه البيت من أمور.

ويلاحَظ على بعض من يُكثِرون من الاجتماع بينهم خارج بيوتهم أو عند أحدهم أنهم يتثاقلون ويَضْجَرون من الجلوس في بيوتهم، وبخاصة إذا علم أنّ أصحابه مجتمعون، وهذا التثاقل والتضجّر قد يُدرِكه أهل بيته ـ بل سيدركونه ـ فيكون وجوده بينهم غيرَ مرغوب فيه بسبب تغيُّر مزاجه وسوء خلُقه، فيكون لسان حال أهل بيته إذا رأوه خارجا «مستريح ومستراح منه»!

روى يعقوب بن عبدالرحمن عن أبي حازم قال: «السيِّئ الخلق أشقى الناس به نفسُه التي بين جنبيه؛ هي منه في بلاء، ثم زوجتُه، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيتَه وإنهم لفي سرور فيسمعون صوتَه فيفرُّون عنه فَرَقًا منه، وحتى إنّ دابّتَه تحيدُ مما يرميها بالحجارة، وإنّ كلبَه ليراه فينزو على الجدار، حتى إنّ قطّهُ

ليفرَّ منه»(١).

وهنا شيءٌ لا بدّ من التنبه له والتنبيه عليه لمن كان له أولاد، وهو أنّ كثرة غيابه عن المنزل قد تجرّئ أولادَه على بعض المحاذير الشرعية، فضلًا عن ما يصيب الزوجة من العناء بسبب كثرة غياب الزوج.

○ وقد يكون من الفوضوية في الزيارات أنّ بعضهم يذهب المسافة البعيدة لزيارة أحد أصحابه دون تأكد من وجوده وعدم انشغاله، فترى بعضهم قد يستغرق في وصوله إلى مكان صاحبه ثلث أو نصف ساعة مثلًا، وقد لا يجد صاحبه، وقد يكون صاحبه موجودًا لكنه مرتبط بمشاغل لنفسه أو أهل بيته وبسبب مجيء ذلك الزائر إليه من مكان بعيد دون موعد سابق قد يُضطَرّ صاحب الدار إلى مجاملته والجلوس معه لضيافته، بل قد يكون أهل صاحب الدار متأهِّبين للذهاب مع أبيهم أو أخيهم المزور، فيتسبب الزائر في إرباك أمورهم.

وقد يقول قائل: ولِمَ لا يعتذر المزور من الزائر انطلاقًا من الآية الكريمة ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٩).

[النور: ٢٨]؟

وجواب ذلك: أنّ بعض الناس قد يُحرَج من الزائر ولا يقوى على قول ذلك.

وبكلِّ حال؛ فترتيب أمر زياراتك ـ بعد توفيق الله تعالى ـ يدفع كلّ ما تقدم ذِكرُه من إضاعة أوقاتك وإحراج أصحابك، ومن الترتيب في ذلك الوعد المسبق بينكما بمقابلتك له أو اتِّصالك عليه، ويتأكد هذا في الأصحاب الذين لم تتوثق الصِّلة بينهم أو تُعرَف منهم مجاملتك على حساب مشاغلهم ومشاغل أهليهم.

شاهد المقال: أنّ ترتيب الوعد المسبق يحفظ لك وقتَك ويرفع الحرج عن صاحبك.

الفوضوية في صلة الأرحام

فمن ذلك:

- أنَّ بعضهم قاطعٌ لكثير من رَحِمه مع قُرب مساكنهم نسبيًّا مع شدَّة وصله لكثير من أصحابه مع تباعُد مساكنهم، والعجب أنَّ بعض أولئك إذا كُلِّم في قطعه لرحمه تعذَّر وتذرَّع بكثرة المشاغل، لكن تعذره وتذرعه يزول عند زيارة أصحابه!
- وقد يكون من الفوضوية أيضًا أنَّ بعضهم يُكثِر من زيارة واحد أو آحاد من رحمه، مما يترتب عليه تأثر مَن لم يكن لهم حظ من صلته، وقد يكون أولئك الذين قطعَ وصلهم آكدَ حقًّا ممَّن وصلهم، ولو أنَّ هذا وأمثالَه رتَّبوا صلتهم لأرحامهم لزالت تلك المحاذير.

ومن الترتيب في ذلك:

- أن يجعل في كلِّ أسبوع زيارة أو زيارتين أو أكثر حسب ما يراه من اقتضاء المصلحة.
- أن يُقدِّمَ الأحقَّ قرابةً وسنًّا.

○ تنوّع الوسائل في صلة الرحم بفضل ما يسّر من وسائل التقنية؛ فهناك الرسائل المقروءة والمسموعة مباشرةً أو آجِلًا... وغير ذلك، وهذه بحمد الله تعالى تُقرِّب البعيد وتجمع المتفرِّق.

الفوضوية في المواعيد

○ بعضهم ليس لمواعيده زِمامٌ ولا خطام! فلا يُقيم للمواعيد ولا لأصحابها وزنًا، يَعِدُ فلانًا بأنه سيحضر إليه في وقت كذا، ثم يَعِدُ آخَر بأن يأتي إليه في وقت كذا، ثمَّ إذا طرأ له شغلٌ ـ من سفر أو غيره ـ اشتغل به ولم يهتمَّ عن سبق الوعد معهم!

○ بعضهم يتعمَّد في جعل أوقات مواعيده تتضارب مع مصالح أهمّ، كبِرّ الوالدين بقضاء حوائج لهما في ذلك الوقت قد يضيق وقت الوالدين أو أحدهما بتأخير قضاء تلك الحاجة عن وقتها.

○ بعضهم يجعل مواعيده تتضارب مع أوقات حضوره لدرس مهمّ أو محاضرة مهمَّة.

○ بعضهم يَعِد الآخَرين بعشوائية، ثمَّ يفاجأ بموعدين أو ثلاثة في وقت واحد، فيُحرِج نفسَه وغيرَه، بل قد يتسبَّب في إدخال الضجر والغيظ أحيانًا بسبب إرباك الموعودين بتأجيل أو إخلاف مواعيدهم دون سابق إخبارٍ لهم أو حُسن اعتذار

بتأخير مواعيدهم إن أمكن.

ولا شكّ ولا ريب أنّ سبب إحراجه لنفسه والآخَرين هو الفوضوية وعدم الترتيب في ذلك كله.

وإليك ـ رعاك الله ـ شيئًا من أثر الترتيب في مواعيد طالب العلم، وشيئًا من الوسائل المعينة عليه، وقبل ذلك يقال:

إنّ الوفاء بالعهد من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكر الله ذلك في كتابه في مدح أنبيائه عليهم السلام:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٤]. وأنعِم بصفةٍ أثنى عليها الله تعالى وتخلق بها أنبياؤه عليهم السلام.

والعجب أنّ أهل الجاهلية كانوا يُعظِّمون شأن الوعد، ومن شواهد ذلك قول عوف بن النعمان في الجاهلية الجهلاء: «لأن يموت الرجل عطشًا خيرٌ له من أن يكون مخلافًا لموعد»[1].

وبكلّ حال؛ فطالب العلم من أولى الناس بلزوم تلك الخصلة، وذلك لأمور كثيرة.. منها: طاعة الله تعالى، والتخلق

(١) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص٤١)، «تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (ص٤٢٩).

بأخلاق الأنبياء عليهم السلام وأنعم وأكرم بهم وبأخلاقهم عليهم السلام، والحذر من الوقوع في ضدِّها من إخلاف المواعيد فذلك من صفات المنافقين كما ثبت عنه ﷺ، ومنها ـ وهو الشاهد في هذا الموضع ـ: أنّ ترتيب طالب العلم لأوقاته وتنظيم شؤونه وأموره يُعينُه على تقسيم مواعيده، وفي الوقت نفسه يُسهِّل عليه الوفاء بتلك المواعيد كل في مكانه وزمانه.

وممَّا يعين على ترتيب المواعيد بعد فضل الله تعالى:

- كتابة تلك المواعيد في ورقة أو سجلّ خاصّ، ويحسن ـ إذا كان الموعد مهمًّا أو بعيد الأجل ـ أن يعلق تلك الورقة في مكان بارز في مكتبته أو غيرها ليكون ذلك الموعد ماثلًا أمامَه.
- الاستعانة بوسائل التقنية الحديثة، كجهاز الجوال الذي يتضمَّن برامج للتذكير بالمواعيد.
- أن يطلب من صاحب الموعد ـ إذا كان وعده بعيد الأجل ـ أن يُشعِره بالموعد المتفق عليه قبل وقته بمدّة كافية حتى لا يرتبط بأمور أخرى تُصَعِّبُ عليه الوفاء بالوعد المسبق.

المكتبة بين الفوضوية والترتيب

من آثار الفوضوية في شأن المكتبة وعدم العناية بترتيبها ما يلي:

- ذهاب وقت كثير في البحث عن كتاب معيَّن في مكتبته، ثمَّ إذا عثر عليه وقضى منه مرادَه واحتاج إليه بعد مدّة فقد يُعاوِد البحث عنه مرَّةً أخرى بوقت كسابقه... وهلمّ جرّا.
- قد يشتري بعضَ الكتب مرَّتين أو ثلاثًا.
- قد يتأخّر عن بحث موضوع قراءةً أو كتابةً لظنه عدم وجود الكتاب المقصود عنده، بينما الكتاب في متناوَل يده لو عُني بالترتيب، وقد يكون تحصّل عليه منذ زمن طويل في مكتبته لكن كلّ ذلك بسبب الفوضوية في عدم عنايته بمكتبته.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فاحرص ـ سدد الله أقوالك وأرشد أفعالك ـ على ترتيب مكتبتك لتزول تلك الجهود المهدرة في غير محلها؛ من بذل جهد يمكن توفيره، وذهاب وقت يمكن حفظه، وإنفاق مال يمكن ادخاره.

ومن طرق ترتيب المكتبة:

* تقسيمها على حسب الفنون العلمية تقسيمًا إجماليًّا ثم تفصيليًّا، فمثلا: علم التفسير بعدما يخصّص له ركنًا معيَّنا يبدأ بوضع كتب التفسير، ثمّ ما يتعلق بعلم القراءات، ثمّ بأسباب النزول، وكلما أكثر التقسيم التفصيلي كلما سهُل عليه الوصول إلى مراده مع توفير جهد ومال.

ومثل ذلك أيضا كتب الفقه يرتبها على حسب مذاهب أصحابها، ثمّ يرتب الكتب والرسائل الفقهية المنثورة على حسب مضامينها، فيجعل ما يتعلق بالصلاة سويًّا، ثمّ الزكاة، ثمّ الصيام، ثمّ الحج، ثمّ المعاملات...

ومن طرق الترتيب أيضا:

* إفراد مصنفات المكثرين من التصنيف، فيجعل ركنًا خاصًّا لمصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وركنًا لابن القيِّم، وركنًا للسيوطي... وهكذا.

وما ذكر هنا مجرَّد إشارة إلى أهمية ترتيب المكتبة وما يحصل من عدم الترتيب من الفوضى في وقت طالب العلم، ومن أراد الزيادة عن العناية بشؤون المكتبة فتفصيل ذلك موجود في مظانه من

الكتب التي تُعنَى بتنظيم المكتبات وترتيبها، لكن مرادي هنا ما يتعلق ببعض مكتبات طلاب العلم التي يغلب عليها عدم الترتيب.

الفوضوية في إيقاف السيارات بما يسبب أذى بعض المسلمين

مراعاة شعور المسلمين وعدم أذيتهم من التعبُّد لله تعالى، فإذا كانت إماطة الأذى عن الطريق صدقة ومن شُعَب الإيمان، فكيف بمن كفّ الأذى عن المسلمين؟ وفي المقابل كيف بمن خالف هذا وتسبَّب في أذى المسلمين؟!

ومن الصُّوَر المشينة في أذية المسلمين ما يحصل من إيقاف بعض السيارات أمام أبوابهم، ويتأكد الضرر إذا كان ذلك أمام أبواب مداخل سياراتهم، وهذا من الفوضوية وعدم مراعاة مشاعر المسلمين، وليضع ذلك المؤذي نفسه مكان المؤذَى ليستشعر الضرر!

ومما يزيد تلك الصورة قبحًا إذا كان أصحاب بعض تلك السيارات من الموسومين بالخير والصلاح، وغالبًا ما يكون هذا عند حضور محاضرة أو درس.

فعلى من كان هذا شأنَه أن يتقي الله تعالى في عدم أذية المسلمين ليسلم من الإثم وأيضا دعاء المتضرِّرين بسببه، وقد بلغ

ببعض أولئك المتضرِّرين أنه سبَّ ودعا على من آذاه بإيقاف سيارته أمام بابه، ولقد أطلعني أحدُهم على ورقة من أحد جيران مسجدهم فيها سبٌّ للملقي والملقى عليهم بسبب إيقاف سيارات بعضهم أمام بيته.

فعلى صاحب السيارة أن يحرص جاهدًا على إبعادها عن بيوت الناس، كإيقافها عند سور المسجد، أو مدرسة، أو حديقة، أو غيرلك، فإن شقّ ذلك عليه فعليه أن يجتنب الوقوف أمام أبواب البيوت.

ومن الفوضوية فيما يتعلق بوقوف السيارات أيضًا ما يحصل من بعضهم من إيقاف سيارته بطريقة عشوائية فيأخذ مكانا يكفي لسيارتين، وأحيانا لثلاث!

وخلاصة القول: أنّ على المسلم ـ وبخاصة القدوة عند الناس ـ أن يحرص جاهدًا على تجنّب ما يُسبِّب أذى للناس.

ومما يحسُن ذِكرُه هنا أن يجتمع الاثنان والثلاثة في سيارة واحدة عند المجيء للمسجد، وفي ذلك مصالح كثيرة، منها:

تقليل عدد السيارات.

ضعف احتمال أذية الجيران.

تذاكر العلم فيما بينهم.

الفوضوية في الترويح عن النفس

الترويح عن النفس أمرٌ مشروع، ودين الإسلام دين السَّماحة واليُسر، ودين الكمال والجدّ، والمتأمِّل في دواوين السنة النبوية عمومًا ـ وفي كتب الشمائل النبوية خصوصًا ـ سيرى نصوصًا كثيرة فيها تنوّع في أساليب الترويح عن النفس، فمن ذلك على سبيل المثال:

- **مسابقته ﷺ لعائشة رضي الله عنها.**
- ومسابقتُه ﷺ بين الخيل المضمّرة وغير المضمّرة.
- ومشاهدته ﷺ للحبشة وهم يلعبون بحرابهم.

والشاهد في هذا المبحث ما يحصل من بعض الناس من الإيغال في أمور الترويح حتى يكون الترويح هو الغالب، بل قد يكون الأصل في حياته... فيأنس بذلك الترويح ويحثّ غيره عليه، فإذا نُبِّه على إفراطه في ذلك الأمر تذرَّع بنصوص الترويح في السُّنة، ومنها ما سبق، ولا شكّ أنّ هذا من الجهالة أو التجاهل، وبيان ذلك:

أنّ الأصل في حياة النبيِّ ﷺ الجدّ والعزيمة، والترويح

عارض، وهو مع ذلك يتقوَّى به على وظيفته العظيمة في دلالة الناس على الخير. وأيضًا مع ترويح النبيِّ ﷺ عن نفسه فقد كان معطيًا كل ذي حق حقه، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**». فلم يشغله ترويحه عن نفسه عن القيام بأعماله الخاصة والعامة للأمة، بل كان يتقوَّى بذلك الترويح كما تقدّم آنفًا الإشارة إليه، بخلاف من غلّب جانب الترويح وأضاع وأهمل الحقوق الخاصة بأهل بيته أو العامة للناس... فحدِّث عن غيابه عن بيته وتضييع حقوق مسؤوليته عن أولاده وزوجته، وكذا في شؤون الناس من إهمال للدوام الوظيفي أو تضييع أمانة المسجد إن كان مؤذنًا أو إمامًا.

الفوضوية في طلب العلم

وأمورها كثيرة، ويحسن تقسيم الكلام في ذلك فأكتفي بذِكر أمرين مع التمثيل لكلّ أمر بعدة أمثلة، ويقاس عليها نظائرها:

○ **الأمر الأول**: الفوضوية في حضور الدرس:

ومن صور ذلك:

▪ أنّ بعضهم إذا لم يفهم شيئًا في أوَّل حضوره للدرس أصابه إحباط فترك الدرس ولم يعُد إليه.

▪ كثرة التنقل من درس إلى آخَر بلا ضابط معيَّن، بل عشوائية في الحضور أو تعجُّل في التحصيل.

▪ يحاكي بعض أصحابه في حضوره وغيابه، فمتى ما حضر فلانٌ حضر معه، وإن تغيَّب فمعه أيضًا.

▪ يجعل الدرس عرضًا، بينما يجعل غيره من الأشغال التي تقبل التأخير أصلًا، بل يصل الحال ببعضهم إلى تقديم الترويح دائمًا على حضور الدرس.

▪ كثرة الغياب والتساهل في الحضور، مما يترتب عليه فوات

كثير من الفوائد فضلًا عن عدم الفهم المترابط لمواضيع الدرس.

- إشغال نفسه بما لا ينفع أثناء الدرس؛ من فضول نظر، أو كثرة حركة، أو عبث بالقلم أو الجوَّال، أو غير ذلك، وقد يشغل غيره بفضول كلام أو كثرة حركة تؤثر على من خلفه أو مَن بجانبه.

- كثرة التأخّر عن حضور الدرس، وهذه الصفة قد تحرم بل ستحرم صاحبها كثيرًا من الخير، بل وقد يكون التأخّر طبعًا له في مسيرة حياته، فيؤثر عليه في طاعاته الواجبة فضلًا عن المستحبة.

- عدم الاستعداد لحضور الدرس بدنيًّا وذهنيًّا؛ فأمّا ذهنيًّا فتراه لا يُحَضِّر للدرس قبل حضوره إليه، ولا يُراجِع ويتعاهد ما سمعه بعد انصرافه منه، وأمّا عدم الاستعداد البدني فتراه يأتي إلى الدرس إن أتى ـ وهو مُجهَد منهك ـ بسبب كثرة أشغاله وإجهاد لنفسه في أمور يمكنه جعل كثير منها أو أكثرها في أوقات لا تزاحم راحته البدنية عند حضوره للدرس، ومن الأسباب أيضًا قلة النوم وكثرة السهر، ويتأكد هذا في الدروس الصباحية؛ فتراه إذا ما حضر إلى الدرس مستغرقًا في نومه أو تراه يخفق برأسه ويغالب نفسه.

ودواء كلّ تلك الأدواء ـ بعد توفيق الله تعالى ـ هو مراعاة الترتيب والتنظيم في أوقاته وأموره.

○ **الأمر الثاني**: الفوضوية في القراءة، ومن صُوَرها:

▪ عدم الاعتناء والمشورة في اختيار الكتاب المقروء؛ فمثلًا قد يكون محبًّا لنوع من العلوم ـ كالتفسير مثلًا ـ فيختار كتابًا من كتُب التفسير فيبدأ بقراءته، وقد يكون ذلك المفسِّر ممّن يُسهِب في إيراد الشواهد النحوية والبلاغية ويُكثِر الكلام حولها، وهي ـ مع عظيم فائدتها في التفسير بخاصة وغيره بعامة ـ لا يُدرِك فائدتَها كلّ أحَد، وقد يكون ذلك المحبّ للتفسير في أول مراحل الطلب فيثقل عليه ذلك الأمر فيترك القراءة أو ينقطع عنها مدة، ولو أنه رتّب أمرَه واستشار أهلَ الدِّراية بذلك العلم خاصة وغيره عامة لأرشدوه ـ بتوفيق الله تعالى ـ إلى ما يناسب مداركه.

ومثل ذلك: أنه قد يبدأ بقراءة تفسير يُكثِر مؤلفُه من سرد الرِّوايات الضعيفة والموضوعة، وذلك المبتدئ لا يميِّز ذلك، وهنا محذورٌ عظيم.. وهو أنه قد يَنقُل تلك الرِّوايات بغثِّها وسمينها، ويَسردها فيما يحضر من المجالس أو في محرابه إن كان إمامًا أو على منبره إن كان خطيبًا، وهنا يَعظُم الخطب في نشره

للكذب وتوسيع دائرته، ولا يشفع له صلاحُ نيَّته، فالعجلة هنا مذمومةٌ، فلو أنه رتّب قراءتَه وسأل أهلَ العلم عمَّا يناسب رغبته من الكتُب لنفع نفسه وغيرَه بنشر العلم وحصول الأجر.

▪ ومن صُوَر الفوضوية في القراءة: عدم ترتيب وقت أو أوقات مُعيَّنة للقراءة، وبخاصة تلك القراءة التي تحتاج إلى تأمُّل ونظر وتأنّ، كقراءة المتون أو شروحها، بل حتى القراءة الترويحية كالقراءة في بعض كتب الأدب أو التاريخ أو الثقافة العامة إذا لم يجعل لها حظًّا من ترتيب وقتها فقد لا يستشعر فائدتها أو قد ينسى كثيرًا مما قرأ ويَعجز عن استحضاره إذا أراد الاستشهاد به.

▪ ومن صُوَر الفوضوية في القراءة: كثرة التنقّل بين الكتُب؛ فتراه إذا بدأ في كتاب ثمَّ وقع في يده آخَر ترك الأوَّل إلى الثاني! فإذا أشكلت عليه كلمة في الثاني ورجع إلى مظنّة بيانها في كتاب ثالث ترك الكتاب الثاني إلى الثالث، وهكذا كلّما رام صيدًا وتبعه فرأى آخَر تركه، وهكذا يرجع خالي الوفاض مُنهَك القوى.

ومن جميل ما يُذكر هنا ما قاله الإمام ابن جماعة رحمه الله تعالى، ونصّ كلامه: «وكذلك يحذر المتعلِّم في ابتداء طلبه من المطالعات في تفاريق المصنَّفات فإنه يضيع زمانه ويفرق ذهنه، بل يعطي الكتاب الذي يقرؤه أو الفنّ الذي يأخذه كلِّيته حتى يُتقِنَه،

وكذلك يحذر من التنقل من كتاب إلى كتاب من غير موجب فإنه علامة الضجر وعدم الإفلاح»[١].

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١١٧-١١٩).

الترتيب في حياة طالب العلم

طالب العلم أولى الناس بترتيب أوقاته وأعماله، ذلك أنّ طالب العلم من أعلم الناس بقيمة الوقت، وأيضًا لكونه محطّ أنظار الناس وقدوتَهم، وأيضًا لتنوُّع مسؤولياته وكثرة حاجة الناس إليه.

لهذه الأسباب وغيرها.. كان لزامًا على طالب العلم أن يُعنَى عناية تامَّة بالترتيب في جميع أموره العامة والخاصة، ولذا من تأمَّل في سِيَرِ العلماء ورأى عظيم آثارهم ـ مع قصر أعمارهم ـ عَلِم أنّ السبب ـ بعد توفيق الله تعالى ـ هو حرصُهم على لحظات أعمارهم والعناية باستثمارها في وجوه الخير، ولا يكون ذلك إلّا بترتيبهم ومعرفتهم بالمهمّ والأهمّ، ومتى يقدَّم هذا أو يؤخَّر ذاك.

أسباب معينة لحصول الترتيب والبركة في الوقت

من أعظم الأسباب في حصول الترتيب والبركة في الوقت إنجاز الكثير في الوقت القليل:

- **أولًا**: الدعاء بصدق وإلحاح.
- **ثانيًا**: صدق النية في الأمور كلها.
- **ثالثًا**: العزيمة وعدم اليأس والقنوط، فلو لم تنتظم أمورُك وترى ثمارها فلا تجعل للإحباط مدخلًا عليك، بل عاود العزيمة مرَّةً ومرَّات، وسترى ـ بحول الله تعالى ـ انتظامًا في أمورك وبركةً في شؤونك.
- **رابعًا**: المشورة وطلب المناصحة ممَّن عُرف بترتيب أموره، وبخاصة ممَّن تُشابِه أحوالُه أحوالك.
- **خامسًا**: حضور دورات تُعنَى بشأن الترتيب وحفظ الأوقات وتنمية القدرات.
- **سادسًا**: قراءةُ بعض الكتُب التي تُعنَى بشأن الترتيب

والتنظيم في الأعمال؛ لأنّ هذا وما قبله في الغالب أنّ القائمين والكاتبين ممَّن لهم خبرة ودراية بذلك.

- **سابعًا** توظيفُ التقنية في شؤونك وبخاصة العلمية؛ لأنّ التقنية ـ بفضل الله تعالى ـ تختزل الزمن؛ فتُقرِّب البعيد وتجمع المتفرِّق وتؤلف بين النظائر... إلى غير ذلك من الخدمات التقنية الهائلة.
- **ثامنًا**: ترتيب برنامج مسبق سواء كان ذهنيًّا أو كتابيًّا، وضمِّن ذلك البرنامج أمورًا مهمَّة تعلم من نفسك أنك ستحرص على الإتيان بها؛ لأنها قاسمٌ مشترك بين الناس، وكثيرٌ من الناس لا يُعيرُها اهتمامًا إلّا إذا طال إهماله لها تلك الساعة يتنبّه لها أو ينبَّه عليها، ومن تلك الأمور: صلة الرحم، وزيارة مريض، وترويح عن النفس، فلو جعلت لك في كلِّ أسبوع مرَّة واحدة لصلة رحم، وأخرى لزيارة مريض، وأخرى لترويح عن النفس.. ولو حدّدت لكلِّ واحدة يومًا معيَّنًا، فمثلا بعد مغرب السبت لعيادة مريض، ومغرب يوم الأحد لصلة رحم، ومغرب يوم الثلاثاء للترويح عن النفس بما تشاء من أمور الترويح المباحة... وأمَّا الدروس العلمية فلزامًا على طالب العلم الحريص أن يُرتِّب لنفسه حضورَ

درس أو درسين أو ثلاثة، ويحرص جاهدًا على العناية بأوقات دروس العلم وعدم مزاحمتها بأشغال أخرى؛ لأنّ الانقطاع أو التأخُّر عن حضور الدروس التي رتّبها لنفسه يُفقِد طالب العلم كثيرًا من الفوائد.

- **تاسعًا:** الرفق والتأنِّي في ترتيب الأمور واتِّخاذ القرار؛ لأنّ الرِّفق من أبواب الخير، ولذا جاءت النصوص بالعناية بهذا الشأن.

قال ﷺ: «**إنّ الرِّفق لا يكون في شيءٍ إلّا زانه، ولا يُنزَع من شيءٍ إلّاشانه**».

وقال ﷺ: «**مَن يُحرَم الرِّفق يحرم الخير في الأمر كلّه**».

وقال ﷺ: «**إنّ اللهَ رفيقٌ يحبّ الرِّفق**».

وفي المقابل جاءت نصوصٌ تؤكِّد بل تمنع المضيّ في العبادة أو الحكم بين الناس إذا كان الذهن والبال مشغولًا، فمثال عدم المضيّ بل البدء في العبادة قوله ﷺ: «**لا صلاةَ بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان**».

ومثال عدم الحكم بين الناس قوله ﷺ: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**».

والشاهد من هذا كلّه: أنّ اشتغال الفكر وعدم استقراره يُوقع في المحاذير القاصرة والمتعدِّية.

من طرق ترتيب الأوقات
عند كثرة المشاغل

إذا اجتمعت عليك مشاغل وتداخلت، فإليك هذه الخطوات لعلها ـ بعد توفيق الله تعالى ـ تكون عونًا لك على ترتيب قضاء تلك الأمور أو قضاء أكثرها:

○ **أولًا**: اسأل الله تعالى دائمًا أن يُعينَك في جميع أمورك، وتذكّر أنك تقول في ركعة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي دُبر كلِّ صلاة مكتوبة: «اللهمَّ أعنِّي على ذِكرك وشُكرك وحُسْنِ عبادتك»، وهذا المقام من تحقيق معنى الاستعانة بالله تعالى.

○ **ثانيًا**: اكتُب جميعَ تلك المشاغل في ورقة، وهذا أسهل من تذكُّرها ذهنيًّا؛ لأنّك قد تعجز عن استحضارها كلها على عجلة من أمرك، وأيضًا لو حصل ذلك فقد يَصعُب تصوُّرُها جميعًا ثمَّ المقارنة والمفارقة بينها، بخلاف كتابتِها في ورقة والنظر فيها بتأنّ، فذلك يأخذ منك وقتًا أكثر من التصوُّر الذهني، لكنه يوفِّر لك وقتًا كثيرًا، بخلاف التصوُّر الذهني

على عجل فذلك يأخذ منك وقتًا قليلًا لكنه يضيع عليك وقتًا كثيرًا.

- **ثالثًا**: استعرض تلك الأمور بتأنّ ورَوِيَّة، تلك الساعة ربما يتبيَّن لك أشياء قد لا تُدرِكُها إذا أخذت الأمور بفوضوية.
- **رابعًا**: بعد استعراضك لتلك الأمور مجتمعة احرص على تقديم ما يضرُّ تأخيرُه، كقضاء حاجة للوالدين، أو زيارة مريض به مرض مخوف وهو يفرح بزيارتك ويحزن أو يجد في نفسه لعدم زيارتك.
- **خامسًا**: إذا كان في بعض الأمور نفعٌ متعدّ، وفي بعضها نفع قاصر، فقدِّم ما كان نفعُه متعدِّيا على ما كان نفعُه قاصرًا. فمثلًا: دُعيتَ إلى مجلس لإصلاح ذات بَيْن أو لطرح مشروع خير يحتاج إلى إبداء رأي ومشورة، وكان لحضورك أثرُه في المجلسين فلا تتأخَّر عن حضور مثل تلك المجالس على ما كان نفعُه قاصرًا من المجالس الأخرى.
- **سادسًا**: إذا كان بالإمكان جمعُ بعض المشاغل متوالية مرتبةً فافعل، فلو قُدِّر ودعاك اثنان من إخوانك لحضور زواجهما أو زواج أحد أولادهما، فحاول إدخال السرور عليهما جميعًا

وذلك بالترتيب معهما من حيث حضور المبكِّر منهما لتبدأه بالحضور، ثمَّ تذهب إلى الآخَر بعد إشعار الأوَّل بظرفك ليشكُرَك على حضورك ويَعذرك لانصرافك.

- **سابعًا** ـ وهو متعلق بما قبله ـ: مهما قدرت على قضاء حوائج كثيرة في وقت متواصل فبادر، ففي ذلك توفُّرُ أوقات مستقبلية. وبيان ذلك:

زيارة مريض، وصلة رحم، وشراء بعض لوازم الدار، وإيصال حاجة إلى أحد معارفك... فهذه أربعة أمور إذا رتّبت قضاءها متواليًا ستفرغ منها جميعًا في بعض يوم، لكن لو جَعَلتَ كلّ أمر في يوم فلا شكّ أنّ الوقت الذي سيذهب عليك أضعاف الوقت السابق، ويكفي أنك في الحال الأوَّل لن تخرج من منزلك وتعود إليه إلّا مرَّةً واحدة بخلاف الحال الثاني فستخرج أربع مرات، وإن زادت المشاغل زاد خروجُك من الدار.

- **ثامنًا**: إذا تزاحمت عليك أشغالٌ وضاق عليك الوقت فاستعن ـ بعد الله تعالى ـ ببعض إخوانك، وبخاصة من تعرف أنه يَفرَح بذلك، شريطةَ ألّا يكون ذلك على حساب

تضييع حقوق أهله وبيته، ويتأكّد هذا إذا كان شغلك الذي تريد منه قضاءَه يتطلب وقتًا طويلًا وبمساعدة أخيك يقلّ الجهد والوقت.

وممَّا يحسُن في هذا المقام أيضًا أن تستعين ـ بعد عون الله تعالى ـ بمن تعرف من معارفك أو أصحابك الذين قد تقصر نفقتهم عن حوائجهم وكافِئْهم على قضاء ما كلفتهم به بمال أو هدية... من باب قوله ﷺ: «**من صنع إليكم معروفا فكافئوه**».

وفي ذلك مصلحتان: قضاء حوائجك، ونفع إخوانك.

- **تاسعًا**: احرص على استخدام التقنية؛ من جوَّال، وحاسب «كمبيوتر».. وغير ذلك في ترتيب أمورك، ففيها بإذن الله تعالى تقريبٌ للبعيد، وجمعٌ للمتفرِّق، واختزال للوقت، وتنظيمٌ للعمل، ومنافعُ أخرى كثيرة.
- **عاشرًا**: اجعل لك حظًّا من حضور بعض الدورات التدريبية التي تُعنى بتنظيم الأوقات، وكذلك قراءة بعض الكتب في هذا المجال.

***

هذه بعض المقترحات والمرئيات.. ولعل بعضها أو أغلبها عن مشورة وتجربة، فانظر ماذا ترى؟ ولعلّ عندك وعند غيرك أكثر وأفضل مما ذُكِر، ولكن:

ومَن لم يجرِّب ليس يعرف قدره

فجرِّب تجد تصديق ما قد ذكرناهُ

وصايا مرتبة

- **أولًا:** احرص جاهدًا على أن تستفيد من كلِّ أحد ولو كان عامِّيًّا فلن تعدم خيرًا من دعوة أو تنبيه على أمر قد خفي عليك

أو نصيحة مؤثرة.. بحكم معتركه في الحياة وما سمع ورأى في حياته، وعوام المسلمين يقلل شأنهم بعضُ الناس، وهذا من الجهالة؛ فهؤلاء العوام قد مرَّت عليهم أحوال وتغيُّرات مجتمعات فأكسبهم ذلك خبرةً واسعةً ونظرةً شاملةً، فحريّ بنا أن نستفيد منهم فضلًا عن توقيرهم.

- **ثانيًا:** احرص على أن تُفيد كلّ أحد ولو كان ولدًا صغيرًا، فالصغير في الغالب يتأثر بمواقف العاطفة والرَّحمة والشفقة، وقد يَبقَى ذلك التأثر راسخًا في نفسه، ويبقى هذا التأثر أيضًا في حال إهانته وضربه، فإن كان الضرب لمصلحة نَفَعَهُ ذلك التأديب، وإن كان الضرب والإهانة ظلمًا وعدوانًا فقد تبقى آثارُها راسخةً تؤثر على الصغير، وتبقى معه ما شاء الله أن تبقى، ولذا لا تحقرنّ كلمةً طيبةً تشجِّع بها

صغيرًا، أو مداعبةً لطيفة تُدخِل بها عليه سرورًا، ناهيك عن هدية ـ بغضّ النظر عن نوعها وقيمتها ـ قد تجعلك محبوبًا راسخَ الخيال في ذهن الصغير حتى يشبّ ويشيب. وهذا الأمر الأخير (الهدية) يحسن أن يكون مع صغار قرابتك ومعارفك، وبخاصة من لكَ علاقةٌ وثيقةٌ بأخيه أو أبيه.

وإليك هذه الأمثلة الثلاثة من تعامل النبيﷺ مع الصِّغار:

الأول: تعليم. والثاني: مداعبة. والثالث: إهداء.

- أما الأول: فقوله ﷺ للغلام الذي كانت يدُه تَطيشُ في الصحفة: «**يا غلام! سمِّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك**».
- وأمّا الثاني: فقول محمود بن الربيع: «**عَقَلتُ مجَّةً مجَّها رسول اللهﷺ في وجهي من دلو كانت في دارنا**».
- وأمّا الثالث: فقد كانﷺ إذا أتي بباكورة ثمَر المدينة قسمه على من عنده من الصِّبيان.

- **ثالثًا:** احرص على توثيق العلاقة مع بعض أهل التخصُّصات العلمية المتنوِّعة؛ فتوثيق العلاقة مع مثل أولئك فيه منافع كثيرة، من التوسع المعرفي المتنوِّع.
- **رابعًا:** لا تؤجِّل عمل اليوم إلى غد، وإيّاك والتسويف، فقد قيل وما أجمل هذا القيل: «التسويف مطية إبليس»، وأقول

لك: «إنّ تأجيل الأعمال عن مواقيتها تولِّد تراكمها، وتراكمها يورث تداخلها، والتأجيل والتراكم والتداخل يحجب بركة الوقت تارةً حجبَ حرمان، وتارةً حجبَ نقصان!»[1].

- **خامسًا:** تقدّم قبل المواعيد بزمن يسير، ويتأكّد هذا إذا كان المكانُ بعيدًا تحسُّبًا لما قد يحدُث من زحمة طريق وما شاكله، وأفضل التبكير المسارعة إلى التقدّم لفعل الخيرات، كالتبكير إلى صلاة جمعة أو جماعة، أو المبادرة إلى أمرِ خير آخَر سواء كان قوليًّا أو عمليًّا، فالمسارعة إلى عمل الخيرات من نهج الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].
- **سادسًا:** إذا أنعم الله تعالى عليك بموهبة ـ من حسن تلاوة أو قريحة شعرية أو خطابة أو قلم سيَّال أو غير ذلك من المواهب ـ فاحرص على المحافظة عليها وعلى تنميتها.
- **سابعًا:** قيِّد ما يمرّ عليك من الفوائد النفيسة، وإيّاك أن تزهد فيها أو تؤخِّر تقييدها أو تستكثر تلك الفوائد، فتأخير

---

(١) من كلماتي في كتابي الموسوم بـ«كتبت».

تقييدها قد يُنسِيها واستكثارك للفوائد يُضعِف همَّتك ويقلِّل عزيمتك، فالعلم كثير والعُمر قليل.

- **ثامنًا:** كن على وقتك أبخلَ من البخيل بمالِه، وكن في نشر وتعليم العلم أكرم من الكريم بماله.
- **تاسعًا:** يَزهَدُ بعضُ طلبة العلم في أجزاء يسيرة من أوقاتهم، لكن تلك الأجزاء إذا جُمِعت أصبحت كُلًّا كبيرًا..

لا تحقرن صغيرة إنّ الجبال من الحصى

ومن أمثلة تلك الأوقات:

- بين الأذان والإقامة.
- أثناء ركوب السيارة.
- الانتظار اليسير سواء كان لانتظار قادم أو غير ذلك.
- في ذهابه وإيابه من وإلى المسجد، أو غيره ممّا يذهب إليه ماشيًا.

هذه الأوقات ـ مع كثرة تكرُّرها ـ تمثّل قسمًا غيرَ قليل من العُمر، ومع ذلك لا يُلقَى لها بالٌ، فاحرص رعاك الله على أن تستثمرها.. بمراجعة محفوظ، أو بسماع مقروء في شريط سمعي إذا كنت راكبًا، فإنْ عُدِم هذا وهذا فلا تحرم نفسك

من شغل تلك الأوقات بذكر الله تعالى.

وأسوق لك أمثلة لترى كيف كان أهل العلم يحرصون على عدم التفريط في جزئيات الوقت فضلًا عن كلِّياته:

- ذكر الذهبيّ عندما ترجم لعبدالوهاب بن عبدالوهاب ابن الأمين: أنّ أوقاته كانت محفوظةً، فلا تمضي له ساعة إلّا في قراءة أو ذِكر أو تهجُّد أو تسميع.
- ومحمد بن عبدالباقي يقول: «ما أعلم أنِّي ضيَّعت ساعةً من عُمري في لهو أو لعب».

ومن الآثار العجيبة التي تُبيِّن مَدى حرصهم على استغلال أوقاتهم ما ذكره الذهبي في كتابه «السِّير» عن داود بن أبي هند رَحِمَهُ اللهُ: أنه كان يقول: «كنتُ أنا وغلامٌ أختلف إلى السُّوق، فإذا انقلبت إلى البيت جعلتُ على نفسي أن أذكر الله إلى مكان كذا وكذا، فإذا بلغتُ إلى ذلك المكان جعلتُ على نفسي أن أذكر الله كذا وكذا... حتى آتي المنزل»[(١)].

***

ختامًا؛ طالب العلم... جعلكَ الله تعالى مبارَكًا أينما كنت،

(١) انظر كتابي: «معالم في طريق طلب العلم» (ص٣٦).

هذه شذرات في شأن الترتيب وهي تحتاج إلى إكمال وتهذيب وترتيب، وعسى الله أن ييسِّر لذلك مَن يقوم به، إنّ ربِّي قريبٌ مجيب، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

فهرس

الموضوع	الصفحة


تم بحمد الله